الباب الخامس

أسباب وهن الأمة

وحاجتها إلى دعوة للإحياء

●● وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب وهن الأمة.

الفصل الثاني: دور الجماعات الإسلامية في إنقاذ الأمة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
أسباب وهن الأمة

لقد تكلَّم الكثيرون عن حال الأمَّة الإسلامية بعد سقوط الخلافة، وانتشار الفساد فيها، واحتلالها من قِبَل أعدائها، وأرجعوا ظهور الجماعات الإسلامية - وخاصة الجماعة الأم - إلىٰ أسباب عدَّة عاصرها معظمهم، وتحدَّثُوا عنها ورواها عنهم الجمع الكبير، والجم الغفير، منها:

١ - فساد الخلافة، ثم سقوطها:

أُصيبت الأمة الإسلامية بصدمة هائلة، حين سقطت خيمة الخلافة التي كانت تظلل أمة الإسلام، وتمزقت (الدولة الواحدة) إلىٰ (دول) أو (دويلات)، و(الأمة الواحدة) إلىٰ (أمم) أو (أميمات)، يجافي بعضها بعضاً، بل يعادي بعضها بعضاً، بل يقاتل بعضها بعضاً، تحت نداءات مختلفة، كلها يحمل العصبية الجاهلية من عنصرية أو إقليمية أو لغوية، وأصبح الوطن الواحد الذي سماه الفقهاء (دار الإسلام) دوراً وأوطاناً، تتنازع فيما بينها علىٰ الحدود، التي صنعها لهم المستعمر الغاصب.

وغدا (القانون الوضعي) الذي جاء في ركاب المحتل، هو الذي حكم رغم أنوفهم، بدلاً من الشريعة الإسلامية، التي ظلُّوا يرجعون إليها في الإفتاء والقضاء والتشريع، ثلاثة عشر قرناً كاملة من الزمان.

وأمسىٰ فكر الغرب الفلسفي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي، هو مصدر التوجيه، ومصدر التنوير، ومصدر التحريك، ومصدر التخطيط، لمجتمعنا المسلم، بعد أن كان الإسلام هو الموجّه الأول، والمؤثر الأول، والمحرِّك الأول للأمَّة، في شتىٰ ميادين الحياة.

لم يعد الإسلام هو أساس الهوية، والانتماء والولاء لأبناء الأمة، كما كان من قبل، وغدت تنافسه، بل تقاومه، هويات وولاءات وانتماءات أخرىٰ، وأصبحت

المسلَّمات العقدية والفكرية والشرعية عُرْضَة للتشكيك، وظهر في مصر كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦م، وقبله كتاب «في أصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق (سنة ١٩٢٥م)، وهو الذي جرَّد فيه الإسلام من الحكم، واعتبره مجرد رسالة روحية، وهو ما لم يقل به أحد قط طوال العصور الماضية.

وكان سقوط الخلافة، إيذاناً بأن القلعة باتت بلا حرَّاس، وأن الحمىٰ أمسىٰ مستباحاً لكل من هبّ ودبّ، حتىٰ اجترأ عليه الجبناء، واستنسر في أرضه البغاث.

وكان سقوط الخلافة سنة ١٩٢٤م فاجعة من الفواجع الكبرىٰ في تاريخ الأمة، زلزل كيانها، وهزَّ بنيانها، أشبه بدخول الصليبيين بيت المقدس، ودخول التتار بغداد في العصور الماضية.

وثار ثائر المسلمين في كل مكان، ونادىٰ المنادون، وعقدت المؤتمرات، من أجل إعادة الخلافة، ولكن العقد قد انفرط، وتناثرت حبَّاته هنا وهناك وهنالك، ولم يكن من السهل جمعه من جديد. فقد كانت المؤامرة أكبر وأعمق من تلك المحاولات الغاضبة والحزينة، في الهند، وفي مصر، وغيرهما من بلاد الإسلام. وبقي الميدان خالياً، يحتاج إلىٰ فارس جديد، يخطط للمعركة بفكر جديد، وسلاح جديد، وجنود جُدد[1].

٢ ـ موجة التغريب العاتية:

وكان من أبرز ما يجسّد الحاجة إلى دعوة جديدة: الموجة العاتية للتغريب الفكري والاجتماعي، التي سمَّاها الإمام حسن البنا (طغيان المادة علىٰ بلاد الإسلام). وقد بيَّنَ ـ رحمه الله ـ آثار هٰذا الغزو الغربي المكثف، الذي استبانت أخطاره علىٰ الأمة الإسلامية في شتىٰ أقطارها، وتجلَّىٰ أظهر ما يكون في مصر، برغم منزلتها الإسلامية، وتاريخها في الدفاع عن الإسلام، بين ذلك بجلاء في رسالة (بين الأمس واليوم)، فقال:

«وقد عمل الأوروبيون جاهدين علىٰ أن تغمر موجة هٰذه الحياة المادية،

(١) الإخوان سبعون عاماً في الدعوة، للدكتور القرضاوي، ص ١٤.

بمظاهرها الفاسدة وجرائمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هٰذه الأمم عناصر الصلاح والقوة، من العلوم والمعارف والصناعات، والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هٰذا الغزو الاجتماعي، إحكاماً شديداً، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا.

أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم، وسهَّلوا عليهم ذلك وهوَّنوه عليهم، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي، وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون، وأن يستأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة، والثروات العظيمة، وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام.

وجلبوا إلى هٰذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات، وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهم، ورواياتهم وخيالاتهم، وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزينوا هٰذه الدنيا الصاخبة العابثة، التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء، وذوي الرأي فيهم، وأهل المكان والسلطان.

ولم يكفهم هٰذا حتى أنشؤوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هٰذه الحياة.

واحتوت هٰذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفاً عليها، وأبناء هٰذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هٰذه الأمم والشعوب، ومن لم يتم نضجه في هٰذه المعاهد الموضعية، فإن في

البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هـٰذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلىٰ النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهـٰذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف.

وتغالت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهـٰذه الحضارة الأوربية والتبرم بصبغتها الإسلامية، حتىٰ أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية وتبعت الأوربيين بعنف قاس في كل ما يصنعون، وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان فطاحت تلك المحاولة بعرشه، وازدادت في مصر مظاهر هـٰذا التقليد واستفحلت حتىٰ استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه لا سبيل إلَّا الترقي إلا بأن نأخذ بهـٰذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب، وأخذت تنتقل في سرعة وقوة من مصر إلىٰ ما جاورها من البلاد حتىٰ وصلت إلىٰ أقصىٰ المغرب، وطوفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز.

ونستطيع أن نقسم البلاد الإسلامية بحسب تأثرها بهـٰذه الحضارة المادية وطغيان مادتها عليها إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ بلاد بلغ هـٰذا التأثر مبلغاً عظيماً يصل إلىٰ القلوب والمشاعر، كما غير الأوضاع والمظاهر، ومن هـٰذه البلاد تركيا ومصر، فقد انحسر ظل الفكرة الإسلامية في هـٰذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعية، وطوردت الفكرة الإسلامية لتقبع في المساجد والزوايا والربط والتكايا.

٢ ـ بلاد تأثرت بهـٰذه الحضارة في أوضاعها ومظاهرها الرسمية، ولكنها لم تتغلب فيها علىٰ المشاعر القلبية كإيران وبلاد المغرب وشمال أفريقيا.

٣ ـ بلاد لم تتأثر بهـٰذه الحضارة فيها إلا طبقة خاصة من المثقفين والحكام دون العامة والدهماء كسوريا والعراق والحجاز وكثير من أجزاء الجزيرة العربية وبقية ممالك الإسلام.

و مع هـٰذا، فالموجة تمتد بسرعة البرق لتصل إلىٰ ما لم تصل إليه بعد من النفوس

والطبقات والأوضاع.

ولقد استطاع خصوم الإسلام أن يخدعوا عقلاء المسلمين وأن يضعوا ستاراً كثيفاً أمام أعين الغير منهم، بتصوير الإسلام نفسه تصويراً قاصراً في ضروب من العقائد والعبادات والأخلاق، إلى جانب مجموعة من الطقوس والخرافات والمظاهر الجوفاء، وأعانهم على هذه الخديعة :جهل المسلمين بحقيقة دينهم، حتى استراح كثير منهم إلى هذا التصوير، واطمأنوا إليه ورضوا به، وطال عليهم في ذلك الأمد، حتى صار من العسير أن نفهم أحدهم أن الإسلام نظام اجتماعي كامل يتناول كل شؤون الحياة»[1].

● **التبشير ودوره في الأمة:**

بلغ استهتار الإنجليز بمقدرات هذه الأمة، أن تجاهلوا أنَّها أمة مسلمة ذات مجد وتاريخ، ففتحوا للحملات التبشيرية أبواب البلاد، بعد أن مهَّدوا لها بنشر الجهل والفقر والمرض، وبعد أن اطمأنوا إلى أن مقاليد الحكم في البلاد أصبحت في يد الفئة التي تدين لهم بالولاء، والتي هي في حقيقة أمرها، غريبة عن هذه البلاد، فهي كما قال الشاعر:

بلاد قد ترى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

انتشر المبشرون في أنحاء البلاد المصرية في الوجهين البحري والقبلي، في المدن والقرى تحت سمع المسؤولون من الحكام وبصرهم، بل إنَّ هؤلاء الحكام في المدن والقرى كما يسهلون لهم وسائل الاتصال بالأهالي وإجراء ما يشاؤون من إجراءات، بل وإقامة ما يشاؤون من منشآت، بل واختطاف من يشاؤون من أطفال ونساء، في الوقت الذي يضربون فيه بيد من حديد كل من تسول له نفسه أن يعترض سبيل هؤلاء الغزاة، ولو بكلمة، معتبرين ذلك اعتداءً على الحكومة... صار هذا الشعب نهباً مباحاً لهؤلاء المبشِّرين.

ولم تكن وسيلتهم إلى التبشير بالمسيحية عرضاً لعقيدتهم وشرحاً لها أمام

(١) المرجع السابق، ص ١٦، ١٧.

الناس، كما هو المتبادر إلىٰ الذهن من لفظ التبشير، وإنَّما وسائلهم هي استغلال فقر الناس وحاجاتهم، وجهلهم، فيأخذون هٰذا الطراز من الناس، ويأخذون نساءهم وأولادهم وينفقون عليهم ببذخ علىٰ أن يظلوا معهم داخل كنائسهم ويقولوا مثلما يقولون. . .

أمَّا الشباب من أبناء الأغنياء، فكانوا يغرونهم بالنساء، كانت وسائلهم أخس الوسائل وأحطها، وقد استمرَّ عملهم هٰذا في جميع أنحاء البلاد أكثر من سنة، ومع ذلك لم يخرجوا بمحصول يزيد علىٰ عشرات الأفراد من هٰؤلاء الجهلة الفقراء المدقعين.

لم تكن هٰذه الحملات العاتية للتبشير في ذلك الوقت ذات أثر يُذكر في نتائجها من ناحية تكفير المسلمين، لكنها كانت صورة بشعة متوحشة للاستعمار البريطاني أمام شعب أعزل مغلوب علىٰ أمره، تضافرت علىٰ قهره حكومته مع الإنجليز. . . كان الناس يبكون من شدَّة الغيظ؛ لأنَّهم يرون بأعينهم من ينتهك حرمة عقيدتهم - وهي أعز ما يعتزون به - وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم؛ لأنَّ حكامهم جعلوا الدفاع عن النفس في هٰذه الحالة، جريمة يُعاقَبُ مرتكبها.

كنا في ذلك الوقت في رشيد، ولم تكن رشيد هدفاً للمبشرين؛ لأنَّهم درسوا طبيعة البلاد قبل أن يخرجوا من أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من بلاد أوروبا، فعلموا أن هناك مدناً مغلقة لا أمل فيها، حيث لها طبيعة خاصة وتاريخ لا يُنْسىٰ ومنها رشيد، فلم يحاولوا دخولها، لكننا كنا نسمع عما يفعلون بالمحمودية وقُرَاها: من خطف الأطفال، وإغراء الفقراء بالمال، وإغراء الشباب بالعبث وبالنساء. وكان أهل المحمودية يحضرون إلىٰ رشيد فيرون ما يحدث عندهم فيبكون ويبكون.

أمَّا الصعيد: فكان مرتعاً خصباً لهم، حيث الفقر هناك، والجهل والمرض أضعاف ما هو عليه في الوجه البحري، وحيث كان الصعيد في ذلك الوقت يعتبر من المجاهل التي تحتاج إلىٰ من يرتادها ويكشف عن معاناة أهلها المعزولين عن الحياة. . . لقد فعلوا فيه الأفاعليل. . . وكانت أسيوط نقطة ارتكازهم وكان لهم فيها مستشفىٰ يخطفون الأطفال والنساء من القرىٰ وينقلونهم إليه، ولا يستطيع أهل

المخطوف أن يروه أو يعلموا عنه شيئاً، كما لا يجدون من يشكون إليه.

كاد الناس يفقدون إيمانهم بالله أمام هٰذه القوىٰ العارمة المتضافرة، ثم لا يجدون من يعترض طريقهم، حتىٰ الصحف لم تكن تشير إلىٰ ذلك مع أنها كانت صحافة حرَّة، لكن نفوذ الإنجليز وقانون المطبوعات الذي وضعه الإنجليز، يعطي حكام مصر المتواطئين معهم السلطة في مصادرة أي صحيفة أو وقفها أو سحب الترخيص منها إذا هي تعرضت للمؤامرة المدبّرة علىٰ إذلال الشعب وتكفيره برضاه أو رغم أنفه، كما أن الأموال الطائلة المعتمدة لحملات التبشير من خزائن أمريكا وانجلترا وفرنسا ودول أوروبا كانت تُنفق علىٰ هٰذه الصحف بسخاء[1].

٣ ـ تصوير واقع مصر والعالم العربي والإسلامي في هذه الحقبة:

وإليك ما قرَّره الدكتور القرضاوي مستعيناً بتحليل الدكتور محمود أبو السعود ـ رحمه الله ـ حيث قال:

«والنتيجة بعد ذلك كله: أنَّ واقع الحال في مصر، وفيما حولها من الوطن العربي والإسلامي، كان ينادي بوجوب دعوة جديدة، سمَّاها الإمام حسن البنا (دعوة البعث والإنقاذ).

ويلزمنا أن نصور هٰذا الواقع تصويراً موضوعياً بعيداً عن لغة العواطف والإثارة؛ لنعلم أن دعوة الإمام حسن البنا كانت فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

وسأستعين في هٰذا بما كتبه د. محمود أبو السعود في مقدمته لكتاب ريتشارد ب. ميتشيل عن الإخوان، في وصف حالة مصر، مع بعض التصرف بالإضافة والحذف، وذلك في الفقرات التالية:

١ ـ وطن باهت اقتطع من أصله بعد أن قطع الحلفاء المنتصرون أوصال الامبراطورية العثمانية، وبعد أن أطاح كمال أتاتورك بالخلافة الإسلامية وأعلن العلمانية، حينئذٍ طبَّق الإنجليز معاهدة «سياكس ـ بيكو» السريَّة التي عقدت في

(١) أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم، ص ٥٩، ٦٠.

موسكو عام ١٩١٥م، وأصبحت مصر داخل نطاق الامبراطورية البريطانية، وإن مُنِحَت في الظاهر ملابس الاستقلال.

وجدت مصر نفسها منعزلة عن دول العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، وأحسَّت بعجز المسلمين، وفي عنقها قيد ثقيل من الاستعمار، وتشجع المستعمرون النعرة الوطنية، هادفين إلىٰ أن يحل «الوطن» محل «الدين» وأن يكون الولاء «للوطن» لا «لله»، وأن يُقْسِمَ الناس بـ«الوطن»، لا بـ«الله»، وأن يموتوا «في سبيل الوطن» لا «في سبيل الله». حتىٰ قال شوقي - رغم نزعته الإسلامية المعروفة في شعره - يخاطب المصريين:

وجه الكنانة ليس يغضب ربك أن تجعلوه كوجهه معبوداً!

٢ - شعب مؤمن بالله والإسلام: عقيدة راسخة، ولكنه شعب جاهل، الأغلبية الساحقة فيه لا تقرأ ولا تكتب، وهو شعب فقير مُسْتَغَلٌ أسوأ الاستغلال، ولكنه أيضاً شعب عريق قديم كريم، فيه طيب أرومة مع ذكاء وفطنة، أضفت عليه ظروفه البيئية والتاريخية حب السلام، وليس الاستسلام - كما يظن الكثيرون - فقد يرضخ المصري المسلم وغير المسلم لحاكم ظالم، وقد يكف عن المجاهدة المادة إذا غلبه مستعمر فاتح، ولكنك تجده أبداً ثائراً في ذات نفسه علىٰ الظلم والاستعمار، ترىٰ ذلك في بسمته الساخرة، وتسمعه في نكتته اللاذعة، بل إنه ليندفع في ثورته حين تتاح له فرصته فإذا به يحقق ما كان يظن أنه مستحيل عليه.

وكان الشعب في هٰذه الحقبة الزمنية، مغلوباً علىٰ أمره تماماً، وما قام بثورة ١٩١٩م إلَّا لإحساسه بالضياع وقد وجد فيها تحقيقاً لذاته، وتعبيراً عن وجوده، وكأنه أراد أن يحسّ بإنسانيته بإظهار إرادته.

ثار هٰذا الشعب ولم يطالب بالخبز وهو جائع، ولا بإلغاء ملكية الأرض الزراعية وهو لا يكاد يملك منها شيئاً[1]، ولم يطالب بإلغاء الألقاب والقضاء علىٰ طبقة (البكوات والباشوات)، والجمهور من لابسي الجلاليب و(الطواقي)، كانت

(١) كان ٩٠٪ من السكان يملكون ١٠٪ من الأرض الزراعية، و١٠٪ من الباشوات والبكوات يملكون ٩٠٪.

ثورته تعبيراً عن صادق شعوره برفضه للاستعمار، وكان مخلصاً في مطالبته بالاستقلال، وإن لم يفكر أو يتصور ماذا سيكون شأنه بعد الاستقلال، بل لم يرسم لنفسه صورة، ولو باهتة، لهـٰذا الوطن في ظل الاستقلال، ومع هـٰذا كله، وفي وسط هـٰذه الثورة العارمة، كان الإسلام حياً في قلبه، متحركاً في باطن عقله، ومستتراً في ضميره، فاعتبر من قتل في الثورة برصاص الإنجليز أو السلطة الحاكمة شهيداً، له جنات الخلد عند ربه، واقترنت الثورة (بالمسجد)، وخرجت المظاهرات من الأزهر وهو رمز الإسلام ومعهده آنذاك.

٣ـ مستعمر قوي ذكي لئيم ذو دهاء ومكر شديد، درس أحوال البلاد عن كثب، ومكن لنفسه علىٰ أيدي بعض الحكام، كون منهم طبقة (المستوزرين)، ومهَّد لتطامن الحكم إليه عن طريقين:

أ ـ **الاستعمار الفكري**: حيث عمل منذ بدء الاحتلال علىٰ تنحية الشريعة الإسلامية من قانون القضاء، وحصرها في الأحوال الشخصية. وحيث فصل بين (العلم) و(الدين)، بل فصل بين المدارس المدنية والمدارس الدينية، فأوجد هوَّة سحيقة بين المثالية الإسلامية والمذهبية المادية التي فرضها بحكم القانون والتعليم.

ب ـ **الاستعمار المادي**: حيث وجه اقتصاد البلاد إلىٰ إنتاج المادة الخام التي تنتجها الأرض الزراعية، حتىٰ كنا نقرأ في الكتب المدرسية أن مصر بلداً زراعياً لا يملك مقومات الصناعة! يُضافُ إلىٰ ذلك: أن الاستعمار وجَّه الناشئة إلىٰ محراب (الحكومة)، فكانت المدارس تخرج الموظفين. وأصبحت القيم الاجتماعية تقيس المرء بوظيفته الحكومية. فإذا علمنا أن من يدرس العلوم الدينية تقتصر وظيفته علىٰ إمامة مسجد أو (مأذونية) زواج وطلاق، أو عمل في المحكمة الشرعية، أو تدريس اللغة العربية والقرآن في المدارس المدنية، أو التدريس في المعاهد التي تخرج فيها... إذا علمنا هـٰذا اتضح لنا كيف استطاعت السياسة الاستعمارية أن تحارب شريعة الإسلام كفلسفة حياة، ونظام تعامل، ودستور يرسم للأفراد حدود المساواة والحرية، وحقوق التكافل وحقوق التعليم.

٤ ـ نظام حكم ظالم: حيث فرض ملك على شعبه، وحيث صيغ دستور يحد من سلطة الحكومة المصرية ومن سيادتها، ويعامل الأجنبي بقانون يختلف عن القانون الذي يسري على المواطنين، ويطبقه قاضٍ من غير المواطنين.

كان الملك غريباً عن رعيته، لا يكاد يتحدث لغتهم، دع عنك مشاركته لعواطفهم وآلامهم وآمالهم، وكان همّه البقاء في الحكم، والاستمتاع بجاه الْمُلْك ونعيمه، وكان ينظر إلى هٰذا الوطن نظرته إلى ملك يمينه، يتحكم في الشعب ومصائره بما يراه ويهواه.

٥ ـ طبقة حاكمة استصفاها الملك ورضي عنها المستعمر، غالبيتها من سلالة ألبانية أو تركية، ورثت عن آبائها وأجدادها القريبين مساحات واسعة من الأرض الزراعية التي أممتها الدولة في عهد محمد علي الكبير، ووزعها إسماعيل على أقربائه وأصفيائه.

وظلَّت هٰذه الطبقة التي لم تكن تعرف من القرآن إلَّا رسمه، ولا من الإسلام إلَّا اسمه، وبعض شعائره، والتي تَرَبَّت في مدارس الأوروبيين، وأتقنت لغاتهم أكثر مما أتقنت لغة القرآن والمواطنين، ظلَّت تتولى مقاليد الحكم، حتى بعد قيام الثورة عام ١٩١٩م وبعد دستور ١٩٢٣م، وإن ظهر على المسرح رجال من صميم الشعب انضموا إلى حزب الوفد، الذي كان يمثل غالبية المصريين، وكانوا يحكمون لفترات قصيرة، كلما هبَّت رياح أزمة أتى بهم الملك، ثم يعصف بهم إثر أزمة يفتعلها هو، أو يفتعلهما له المستعمر المحتل للبلاد.

كانت الطبقة الحاكمة هي الطبقة الغنية، وهي الطبقة المتعلمة، وهي المالكة لمنابع الثروة، وبالرغم من وجود الأحزاب المتعددة، فإنَّ الأكثرية من الشعب كانت متعلقة بحزب واحد، هو حزب الوفد الذي تزعَّمه رجل من صميم الشعب هو سعد زغلول وخليفته مصطفى النحاس.

لم يناد الوفد قط بالإسلام نظاماً للحياة، ولم يكن في برنامجه أن يعيد للناس قوانيهم الإسلامية أو أن يشيع بينهم الإسلام منهاجاً وفكرة وشريعة، نزل بها وحي

الله على نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحدد المثل الأعلى، وترسي للناس قواعد معاملاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية، ومع ذلك كان زعماء هذا الحزب يدركون تماماً مدى تغلغل الإسلام في النفوس، فاستعملوا الدين وسيلة لتوطيد زعامتهم، واكتساب قلوب العامة من شعبهم، وكان غير المسلمين من القادة الوفديين يحفظون من آيات القرآن الكريم ما يترنمون به في خطبهم، وهم يعلمون كم يلقى ذلك من قبول في نفوس السامعين، وكيف تخشع له قلوبهم.

هكذا كان حال مصر والمصريين: وطنٌ ضربت عليه العزلة، وشعب مؤمن جاهل مغلوب على أمره، ومستعمر داهية متمكّن من الحكم سافراً أو مقنعاً، وملك غريب عن شعبه لغة وفكراً وعاطفة، وطبقة حاكمة منعزلة عن الرعية، وهي المالكة لمنابع الثروة بغير حق شرعي، ونظام قانوني مستقي من الغرب بعيد عن أعراف الناس ومعتقداتهم، ونزعة وطنية مستحدثة، وإقصاء متعمَّد للدين الإسلامي عن واقع الحياة... التعليم لا توجهه فكرة الإسلام، والثقافة لا ترتكز على مفاهيم الإسلام، والتقاليد لا ترجع إلى قيم الإسلام، كما أن القوانين لا تحتكم إلى شريعة الإسلام[1].

٦ ـ ووطن عربي وإسلامي، يشبه حاله حال مصر، في تحكّم الاستعمار في مقدراته، وفي اصطناع طبقة يربيها الاستعمار في حضانته، ويرضعها من ألبان ثقافته، ويهيئها لحكم الشعب كما يريد المستعمر، وفجوات اجتماعية بين ذوي الثراء الفاحش والفقر المدقع، وفلسفة علمانية دخيلة عزلت الدين عن الحياة، وتبنت فكرة (الوطنية الإقليمية) أو فكرة (القومية العنصرية) بين شعوب المسلمين، حتى تغيب فكرة (الأمة الواحدة) التي أرادها الله، للتحول إلى (أمم شتى) يجافي بعضها بعضاً، بل يعادي بعضها بعضاً، بل ربما قاتل بعضها بعضاً. بعد أن كانت تضمهم (دار واحدة) هي دار الإسلام، وتحكمهم (مرجعية واحدة) هي شريعة الإسلام،

(١) انظر: مقدمة د. أبو السعود لكتاب ميتشل عن الإخوان، ص ٢٠ ـ ٢٤. وانظر: فصل (كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع)، من كتابنا «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا».

وتجمعهم (دولة واحدة) هي دولة الخلافة.

ويمكن إجمال حال الأمة في هـٰذا الوقت بأنها كانت أمة ميتة تماماً لا حراك بها. فإذا خرجت عن دائرة مصر لترىٰ ما حولها من دول عربية وإسلامية، وجدت كل شعب من هـٰذه الشعوب يغط في نوم عميق والاستعمار آخذ بخناقهم جميعاً، وقد فقد الجميع كل شيء حتىٰ الإحساس بالظلم، كما أن شعب كل دولة من هـٰذه الدول يجهل كل شيء عن شعوب الدول العربية والإسلامية الأخرىٰ، بل كان المصري ـ علىٰ سبيل المثال ـ لا يعرف الكثير عن البلاد الغربية ويزورها ولا يعرف شيئاً عن بلاد شقيقة متاخمة لبلاده، ولا يخطر بباله أن يزورها، وكذلك كان شعور سكان البلاد العربية والإسلامية الأخرىٰ نحو مصر ونحو بعضها بعضاً.

في هـٰذا الجو الغائم القاتم، ولدت دعوة الإخوان المسلمين، أحوج ما تكون مصر ـ والوطن العربي والإسلامي الكبير ـ إليها؛ لتكون (دعوة البعث والإنقاذ) كما عبَّر عنها الإمام حسن البنا مؤسس الحركة.

بدأت هـٰذه الدعوة من فكر مؤسسها وشعوره الداخلي الغامر، بأن عليه فرضاً لأمته يجب أن يؤديه، وأن لديه طاقة يجب ألَّا يدَّخرها في إحياء الأمة، وتجديد دينها.

٤ ـ المؤسسات الدينية:

أمَّا الأزهر، وهو المصدر الوحيد الذي يتلقىٰ الناس منه تعاليم دينهم، فإنَّه كان أداة طيِّعَة في يد المستعمر عن طريق الحكام... نشر في الناس صورة باهتة مشوهة للإسلام، فكان معنىٰ الإسلام في نظر الناس ـ بفضل الأزهر ـ لا يتعدىٰ طقوساً تُؤَدَّىٰ داخل المساجد أو في البيوت، وكادت الاستكانة أن تكون مرادفة للإسلام في نظر الناس.

وأمَّا علماء الأزهر، فقد كانوا مشغولين بقضايا داخلة، وكانت السلطة الحاكمة قد ورثت من عهد الاستعمار: أن تعزل الأزهر عن التأثير في الحياة، وأن تضيق علىٰ علمائه وأبنائه، حتىٰ تلهيهم لقمة العيش عن هموم الدعوة إلىٰ الدين، وقضايا الأمة

المصيرية. وتحاول أن تشغلهم عن الإصلاح بقضايا جزئية، وتجتهد أن تشغل بعضهم ببعض.

وكانت الطرق الصوفية مشغولة بأذكارها وأورادها ـ وبعضها بموالدها وموائدها ـ عن التصدي للإصلاح، وحمل راية الدعوة العامة لتجديد الإسلام في الأمَّة. وهي نفسها في حاجة إلىٰ الإصلاح والتجديد، وفاقد الشيء لا يعطيه!

فكانت الأمَّة في حاجة إلىٰ دعوة جديدة، تجدد دعوة النبي الأمين، يقوم عليها (صحابة جدد) يقومون في الآخرين مقام الصحابة في الأولين. وهم القابضون علىٰ دينهم في أيام الشدائد والفتن أو أيَّام الصبر، التي جاء فيها الحديث الشريف: «**إنَّ من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيه مثل القابض علىٰ الجمر، للعامل في ذلك الزمان أجر خمسين رجلاً**» ـ وزادني غير عتبة بن أبي حكيم، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «**لا، بل أجر خمسين رجلاً منكم** ـ »[1]، [2].

•• الحركات الإسلامية:

ظهرت الحركات الإسلامية وكأنها علىٰ قَدَرٍ، والمسلمون أحوج ما يكونون إليها، بعدما قدمنا من:

١ ـ هدم الخلافة، واحتلال أوطان المسلمين، وطناً تلو الآخر، وبعد أن أصبح الاستعمار يتحكم في رقاب المسلمين ومقدراتهم بعد الحرب العالمية الأولىٰ، وتقاسم دول أوروبا لديار المسلمين بعد اتفاقية (سايكس ـ بيكو)، فكانت مصر والسودان والعراق وفلسطين والهند وماليزيا ونيجيريا وغيرها من بلاد أفريقيا من حصة الاستعمار البريطاني، وكان من حصة فرنسا: سوريا، ولبنان، وشمال أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش)، وموريتانيا، والسنغال، وغيرها. حتىٰ هولندا التي لم يكن يزيد تعدادها في هـٰذا الوقت علىٰ خمسة ملايين كانت تستعمر إندونيسيا التي تزيد علىٰ ٧٠ مليون نسمة ومساحتها ٧٣٥,٨٦٥ ميلاً مربعاً، متوزعة علىٰ ١٣ ألف

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٨٠٣٣) (١٦/ ٩٣) عن أبي ثعلبة.

(٢) انظر: مقدمة د. أبو السعود لكتاب ميشل عن الإخوان، ص ٢٠ ـ ٢٤. وانظر: فصل (كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع)، من كتابنا «الحلول المستوردة وكيف جنت علىٰ أمتنا».

obeikandi.com

جزيرة منها ستة آلاف آهلة بالسكان.

٢ ـ هٰذا عدا الجهل والتشرذم الذي آل إليه المسلمون، والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والعلمي الذي وصل إلىٰ أدنىٰ مستوىٰ له في أمة من الأمم.

٣ ـ الفساد الذي أصاب كل نواحي الحياة؛ الاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية.

٤ ـ فقد الحريات، وانعدام القانون والدساتير، والمؤسسات، وضياع العدالة.

● **أمة لا بد لها من علاج:**

أمَّة تحالف عليها كثير من الأعداء من داخلها وخارجها: الاستعمار، والقهر، من خارجها. والجهل، والنفاق، والوهن، من داخلها

لله در القائل: «ما يفعل الأعداء من جاهلٍ ما يفعل الجاهل من نفسه؟!».

إنَّ أساسَ بلاء الشعوب، من أنفسها. ولن تستطيع أن تغير الأمم شيئاً إلَّا إذا غيَّرت نفسها حتىٰ ترىٰ الصواب صواباً والخطأ خطأ، والنهار نهاراً والليل ليلاً. فقد يُعاب القول الصحيح إذا كان الجهل هو سيد الموقف!

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وكم محب لليل الطويل، والظلام الدامس إذا كان النظر عليلاً والطبيعة فاسدة والفطرة عفنة.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولاءمها قطع من الليل مظلم

إنَّ الجهل مرض عضال، يستغله في الأمة كل مستعمر أو دجَّال، يوظفه توظيفاً شيطانياً لمصلحته. ويتعين به في كل داهية ودكتاتور لتنفيذ مآربه وبسط سلطانه وترسيخ استعباده. والغوغائية بلاء يقصم الظهور، ويكرس الخداع، ويعلم الثرثرة، ويشغل عن الحقوق، ويعلم التشرذم.

ملأ الجو صياحاً بحياة قاتليه يا له من ببغاء عقله في أذنيه

قل لي بربك! ما الذي يسير شعوباً عدد الحصىٰ، بغير قانون، أو حريات، أو

مؤسسات حقيقية، أو اقتصاد فاعل؟!

ما الذي يجعلها تنعم بالفقر، وترضىٰ بالجوع، وتفرح بالبطالة، وتهلل للدكتاتوريات المستعمرة، وتعيش بلهاء بغير حضارة أو تقدم، وتتعشق ازدراء العالم؟!

ما الذي يجعلها تهتف بالروح والدم؛ حتىٰ تتفطر حناجرها، وعندها فقر دم، وهي فاقدة للروح والإحساس، قد دهاها الدهر ونالت منها الأيّام وطحنتها المآسي والدواهي؟!

حنتني حانيات الدهر حتى ... كأنّي راقب يدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآني ... ـ ولست مقيداً ـ إني بقيد

وكان كل مخلص ينادي، أمَا آنَ للذين يملكون الشعوب أن يرحموها، يرحموا ذلّها، وانكسارها، وفقرها، وجهلها، وسذاجتها؛ لأنَّها البقرة الحلوب، والعبد المخلص، والحمَّال الدؤوب بغير ثمن أو كلل. ولولاهم، ما زالت الأرصدة، ولا بنيت القصور، ولا عاش مصاصو الدماء بغير دماء، أو أُبهات ومناصب، ولا يستحقونها وهم أصفار متجمعة لا تنتحىٰ ولا تتزحزح فتفسح الطريق.

أمَا آنَ للسيرك القذر أن يتوارىٰ ويُقْلعُ عن المسرحيات الهزلية التي يتوارىٰ خلفها، ويتستر بها، من انتخابات شكلية، ومؤسسات وهمية، وقوانين سرابية، وزخف سلطانية!

أمَا آنَ لشيء اسمه العدالة، ولأمر اسمه الدستور، ولمصطلح اسمه القانون، أن يرىٰ النور، وأن يكون له وجود في منطقتنا العربية المباركة، وأن تسمع الشعوب ولو مرة واحدة أن هناك كشوف حساب تقدمها السلطات للأمة حتىٰ ترىٰ الإنجازات أو الإخفاقات التي يكون عليها، المدح أو الذم، والتنحية والحساب.

أمَا آنَ للشعوب أن ترىٰ سلطة ـ ولو واحدة ـ تتنحىٰ أو تتبدل بغير الموت أو القتل، وأن تختار من يحكمها بحريَّة، ويصرّف أمورها عن تراضٍ وثقة!

إنَّ مدارس النبوغ في الفشل، لا تكون دائماً إلَّا عربية، ولهٰذا تراها دائماً أبدية

لا نهائية، وجموع المداحين والنفعيين وفقراء الكفاءات، وتعساء العقول والأفكار والانتهازيين، لا تَنْبُت إلَّا في تربتنا وتحت سمائنا العظيمة.

وكان لا بد وأن يسائل كل مخلص نفسه:

ما الذي أوصلنا إلى هذا الحضيض؟

وهل لهذا الكرب من مخرج؟

وهنا قام رجال ونادوا في الناس: أن هلمُّوا إلى الإسلام من جديد، فإنَّه المنقذ والمخلص وعنده الحل مما نحن فيه، وتجمَّع الناس وبدأت المسيرة الخيِّرة وظهرت تباشير الإصباح.

* * *

obeikandl.com

الفصل الثاني
دور الجماعات الإسلامية في إنقاذ الأمة

بدأ الدُّعاة إلىٰ الله عملهم في وسط الناس: في الجامعات، في المساجد، في المعاهد، في الأماكن العامة. فسمع الناس حكمة الله، وتعرَّفُوا إلىٰ كتابه، وعايشوا رسولهم، وصاحبوا سلفهم الصالح، فوجد الناس الهداية المفقودة، والرجولة المنشودة، والهمَّة المقصودة، وأرجع لهم الحياة بعد الموات. وصدق الله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فتحركَّت في قلوبهم نخوة الإسلام، وجرت في عروقهم دماء الإيمان، فاستعدوا للعمل لإنقاذ أمتهم، وتكونت الجماعات الإسلامية، وقامت الجماعة الأم جماعة الإخوان المسلمين بجهد قائدها حسن البنا؛ لتوقظ الناس وتكشف البلاء، وندع الحديث للطالب حسن البنا يحكي لنا شيئاً عن بدء كفاحه:

يقول حسن البنا ـ الطالب بدار العلوم في ذلك الوقت ـ كاد صدري يحترق من زفرات الألم كما كادت تحترق صدور الناس من حولي، لكنني فكَّرتُ فلم أجد لهٰذا الألم معنىٰ إذا لم يتحول إلىٰ عمل، ولكن كيف نحوله إلىٰ عمل والحراب مشرعة في وجوهنا من رجال الحكم الذين كان يجب أن يكونوا هم ملاذ الناس، والذين صرنا وإياهم كما قال الشاعر:

وقد كان منا إليك الشكاة ... فأصبحت أنت الذي تشتكي

فكَّر حسن البنا، فرأىٰ أمامه الأزهر شخصيات يرجىٰ نفعها لما يلمس فيها من غيرة علىٰ الدين واستعداد للعمل إذا وجدوا إليه سبيلاً؛ كالشيخ يوسف الدجوي، فاتصل بهٰذه الشخصيات فوجد فيها تحرقاً إلىٰ العمل لكن الطريق أمامهم مسدود... ثم لاحت في مخيلته صورة شخصية أخرىٰ لها كيان علمي وأدبي تفرَّدت به دون غيرها، ولها من ظروفها ما قد يعين علىٰ إيجاد بصيص من نور في هٰذه الحلكة القاتمة. تلك هي شخصية «أحمد باشا تيمور»، ذلك العالم الجليل،

سليل المجد، والصديق الشخصي للملك فؤاد.

استصحب حسن البنا معه ممن استجاب له من هيئة كبار العلماء وطلبوا مقابلة أحمد باشا تيمور في منزله، فاستقبلهم الرجل أحسن استقبال وكان يعرفهم جميعاً عدا هٰذا الشاب الصغير، وتقدَّم هٰذا الشاب الصغير، فتحدَّث عن الموضوع. حديث الثكلىٰ عن فلذة كبدها ـ ووصف الحال التي تظل البلاد وكيف يعيث المبشرون في البلاد فساداً تحت سمع الحكومة وبصرها، بل وفي حمايتها. وانفجر في البكاء حتىٰ أبكىٰ الباشا، فأبكىٰ الحاضرين، وتداول المجتمعون عسىٰ أن يجدوا مخرجاً، وجاءت سيرة الملك فؤاد فقال تيمور باشا: إنَّه صديقي وأثق في غيرته علىٰ الإسلام. وتعددت الاجتماعات ونوقشت أفكار ومقترحات، وانتهت إلىٰ قرار بأن أول إجراء لا بد منه: أن نصدر مجلة تتصدَّىٰ لهٰذه المؤامرة وتفضح اعتداءاتها وتستنهض الهمم لمقاومتها، وبجهود تيمور باشا وتدخل الملك فؤاد، صدرت مجلة (الفتح) وأُسندت رياسة تحريرها إلىٰ الكاتب الإسلامي العظيم محب الدين الخطيب.

وبدأ العمل للإسلام الذي يجمع ولا يفرق، ويصلح ولا يتوانىٰ، بقدوة كريمة وسيرة عطرة وهمَّة عالية طار ذكرها في كل صقع وناد، وبلد وواد، فكانت أشبه بسحابة خير ممطرة أينما حلَّت سقت وأنبتت الخير الكثير، فعمت الدعوة مصر، وطارت إلىٰ الشام، وبلاد المشرق، وسرت في السودان وأفريقيا، ومدت فروعها إلىٰ آسيا، وقامت تدافع عن تعاليم الإسلام وتربىٰ علىٰ منهاجه، لتخرج المسلم النابه واللبنة العظيمة القادرة علىٰ التغيير.

وكان من أهداف الحركة الإسلامية: العمل في أرجاء الأمة، وعلىٰ محاورها الوطنية والقومية والإسلامية، بمعنىٰ أنها تشتمل علىٰ قضية الوطن الصغرىٰ وقضية الوطن الكبير، وقضية الوطن الأكبر.

أمَّا الوطن الصغير: فهو البلد الذي يعيش فيه المسلم، يعمل علىٰ رفعته وسعادته وتحرره وتقدّمه.

وأمَّا الوطن الكبير: فهو الوطن العربي من المحيط الأطلسي إلىٰ الخليج

الفارسي، وهٰذه كانت التسمية المتوارثة له، وهو ـ في الحقيقة ـ فارسي من جهة، عربي من جهة أخرىٰ. ويستحسن أن يطلق عليه الخليج الإسلامي. وكانت مصر والحركة الإسلامية الكبرىٰ «الإخوان المسلمون» ملاذاً للمطرودين من أوطانهم، والمجاهدين في سبيل تحريرها من المشرق العربي ومغربه.

كما ركَّزت الحركة علىٰ قضية فلسطين، وتصدت لمكر الصهاينة واغتصابهم لها بكل ما أُوتيت من جهد وقوة.

وأمَّا الوطن الأكبر: فهو الوطن الإسلامي، من جاكرتا إلىٰ مراكش، أو من المحيط الهادي إلىٰ المحيط الأطلسي، وكل أرض دنسها الاستعمار في هٰذا الوطن الحبيب يجب العمل علىٰ تحريرها، ويجب علىٰ أهلها ـ بمساعدة المسلمين ـ أن يجاهدوا العدو الغاصب حتىٰ يجلو عنها مذموماً مدحوراً. كما يجب العمل علىٰ رفعتها ونهضتها، حتىٰ تكون قوية عزيزة الجانب.

● **انتشار الفكر الإسلامي:**

انتشرت الفكرة الإسلامية في أرجاء الوطن الإسلامي الأكبر، وظهرت الحركات الإسلامية، وصار لها أنصار ورجال، وجاهدت في كل ميدان؛ لترجع الأمة إلىٰ مجدها حرَّة أبيَّة مؤمنة عظيمة، وسرعان ما ظهر أثرها، وثبت وجودها علىٰ الساحة وعملها في المجتمع، فكافحت المستعمر وطاردته وشمرت للفساد وغالبته، ونازلت المحتل في كل ميدان وصارعته في كل قطر، حتىٰ يئس المهزوم، وولَّىٰ واندحر، نازلته في مصر في القتال، ونازلته في الجزائر، وفي تونس، وفي ليبيا، وفي أفغانستان، وفي الشيشان، وفي الفلبين، وفي كشمير، وفي كثير من البلدان الإسلامية.

● **أعداء الحركات الإسلامية:**

لأجل هٰذا وغيره؛ تجمَّع الاستعمار والفساد وأصحاب الأهواء، علىٰ الحركات الإسلامية، وعاداها كل عدو للأمة، ودخلت الحركات في منعطف الاختبار والامتحان، وكان هٰذا شيئاً مقدّراً ومحسوباً وطّنت عليه الحركات نفسها، ونبهت إليه رجالها، ولهٰذا يقول الإمام البنا ـ رضوان الله عليه ـ لإخوانه:

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلتقي منهم خصومه شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يتغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تجد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم.

وسيتذرع الغاصبون بكل طرق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان. وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يبصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وستدخلون بذلك ـ ولا شك ـ في دور التجربة والامتحان، فتجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٤].

فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟»[١].

كما أنَّ هناك من يعادون الحركات؛ لأنَّهم يعادون الإسلام: رسالته وحضارته وأمته، ويتوجسون خيفة من انبعاثه وصحوته، أو يتميزون غيظاً كلما نهض من عثرته أو قرب من جمع كلمته، وهؤلاء تحركهم أحقاد قديمة، وأطماع جديدة، ومخاوف دائمة، ونرى هذا يتجسد في القوى الصهيونية، والصليبية، والشيوعية، ومن دار في فلكها، وحطب في حبالها، فلا يتصور من هؤلاء أن يفتحوا قلوبهم للحركة وأن يرحبوا بدعوتهم، بل هي مصنفة في قائمة الأعداء أبداً، وهو ما لا نزال نشاهده إلى اليوم. مهما حاول رجالها أن يبيِّنوا وجه المرونة في دعوتهم، والانفتاح في وجهتهم، ويفتحوا صفحة للحوار مع الآخر ويتبنوا فكرة الوسطية والاعتدال في مواقفهم، حتى اتهمهم المتشددون بتمييع الإسلام، وتقديم التنازلات دون مقابل.

ومع هذا، رأينا الغرب المعادي والمتأثر باللوبي الصهيوني، يزداد بُعْداً كلما ازددنا منه قرباً، ويخوّف من الصحوة الإسلامية، ومما سمَّاه (الخطر الإسلامي) الذي أطلق عليه (الخطر الأخضر)، بل غدا يحذر من (الإسلام المعتدل) بعد أن كان يحذر من (الإسلام المتطرف)، ويقول: إنَّ الإسلام المعتدل أشد خطراً؛ لأنَّه أبقى أثراً وأطول عمراً.

ومن كان عميلاً لهذه القوى المعادية للإسلام وأمته، أو من عبيد فكرها، وأسارى فلسفتها، فهو يحتضن أفكارها، ويروج أخبارها، عن وعي وقصد، أو عن تقليد كتقليد القردة، ومحاكاة كمحاكاة الببغاء.

ومثل هؤلاء: من يعادي الإسلام ـ ممن ينتسب إلى أبنائه ـ لأنه يعادي الإسلام ويكره الإسلام، وإن تسمَّى بأسماء أهله، فهو لا يحب للإسلام أن يسود، ولا لأمته أن تقود، ولا لدولته أن تعود، ولا ذنب للإخوان لدى هؤلاء إلَّا أنهم يدعون إلى الإسلام، ويجاهدون في سبيله.

---

(١) رسالة «بين الأمس واليوم»، ص ١٠٩.

ولكن من مكر هـٰؤلاء الكارهين للإسلام ولتعاليمه وشرائعه: أنهم لا يستطيعون أن يظهروا أمام الناس على حقيقتهم، ولا أن يكشفوا اللثام عن وجوههم، وأن يعلنوا عن عداوتهم للإسلام، فلا غرو أن يصبوا عداوتهم كلها على الإخوان، ويفرغوا كل أحقادهم وكراهيتهم في جماعتهم، تنفيساً عن الحقد والبغضاء لهـٰذا الدين.

وهـٰؤلاء لا علاج لهم ولا دواء لأحقادهم، إلَّا أن يتخلَّى الإخوان عن الإسلام وعن الدعوة إليه وعن جمع الأمة عليه، (هنا يكونون سمنا على عسل)، ويصبحون موضع الرضا والقبول.

وقديماً قال معاوية: أستطيع أن أرضي كل خصومي إلَّا واحداً! قيل: من هو؟ قال: الحاسد؛ لأنَّه لا يرضى إلَّا زوال نعمتي!

وكذلك تستطيع أن ترضي أي خصم بطريقة وأخرى، إلَّا من يكره الإسلام، فهـٰذا لا يرضيه إلَّا سقوط راية الإسلام، وانطفاء جذوة الإسلام.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وفي مثل هـٰؤلاء جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ أي: لا يرضيهم شيء إلَّا ترك الإسلام تماماً، والدخول في دينهم، وهو مستحيل.

ولقد بيَّن القرآن نية أعداء الإسلام الكارهين له، فقال عز من قائل: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فانظر إلى هـٰذه الصيغة: ﴿وَلا يَزَالُونَ﴾ التي تشعر بالاستمرار، وإلى الهدف: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾.

والمعركة دائرة الرحى ومستمرة، ما دام في الدنيا حق وباطل، وإيمان وكفر[1].

* * *

(١) الإخوان سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد، ص ٣٥٧.